المعتمد بن عباد صاحب أشبيلية

(488– 1095 م)

شاعراً أم ملكاً

د. الفاتح الزين الشيخ إدريس
أستاذ مساعد
قسم التاريخ – كلية الآداب – جامعة الخرطوم

لعلَّ شهرة المعتمد بن عباد في كتب التاريخ والأدب تقوم على كونه شاعراً مبدعاً أكثر من كونه ملكاً. فالمعتمد، كأبيه المعتضد وجده وسَميّهِ القاضي محمد بن عباد، وكأبنائه هو من بعده نظم الشعر ، إلا أنه بموهبته الشعرية فاقهم بكثير ، كما فاق غيره من ملوك الطوائف بالأندلس . كان المعتمد شاعراً من الطراز الأول "وكان لا يستوزر وزيراً إلا أن يكون أديباً شاعراً حسن الأدوات، فاجتمع له من الوزراء الشعراء ما لم يجتمع لأحد من قبله[1] " وفي عهد المعتمد كان للشعراء عصرهم الذهبي ، وتقاطر خيرتهم إلى بلاطه من الأندلس وصقلية وإفريقية.[2] وشعرُ المعتمد كثير الملح وقد شُبِّه بالحُلَلِ المنشَّرة.[3]

في وســـع القـــارئ لأشعار المعتمد أن يدرس من خلالها شخصيته وأن يكتب سيرته كذلك فإن المعتمد يشير في أشعاره إلى الأحداث الهامة في زمنه، كفشله في عهد أبيه في الاستيلاء على مالقة من أيدي بني زيري أصحاب غرناطة(458– 1066م) واستيلائه

---

[1] المراكشي ، المعجب ، ص 105

[2] ابن الابار ، الحلة 55/2

[3] المراكشي ،المصدر السابق ص 101 مجموعة دوزي عن بني عباد 30/2 – اخبار الملوك لامير حماد الملك المنصور-

أعانه ذلك في تمحيص الخبر على تمييز الصدق من الكذب وهذا أبلغ في التمحيص في كل وجه يعرض"(76).

ولأن هذا السبب قد عدّه ابن خلدون سبباً أساسياً لمغالط المؤرخين فلابد من تناوله بشئ من التحليل والتفصيل.

العمران:

جاء في الصحاح: عمرت الخراب بمعنى أعمره عمارة، فهو عامر، أي معمور، والمعمر المنزل الواسع من جهة الماء والكلأ(77).

عمر الله بك منزلك يعمره عمارة، واعمره جعله آهلاً ومكان عامر ذو عمارة(78).

إذن فالعمران يناقض القفر أي المكان غير الآهل والذي لا أثر فيه لحياة اجتماعية إنسانية، وعليه فالعمران يدل على اجتماعي إنساني أو بشري، وبهذا المعني استخدم ابن خلدون كلمة عمران فعلى سبيل المثال نجده يقول "اعلم أنه لما كانت حقيقة التاريخ أنه خبر عن الاجتماع الإنساني الذي هو عمران العالم"(79). وكذلك يقول "فالقانون في تمييز الحق من الباطل في الأخبار بالإمكان والاستحالة أن ننظر في الاجتماع البشري الذي هو عمران العالم"(80).

وبالنسبة "لما يلحق المجتمع من العوارض لذاته" أو كلمة "العوارض الذاتية" فابن خلدون يقصد منها ما نقصده نحن من كلمة "القوانين"(81) وعليه فان المجتمع الإنساني

---

[76]) ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ص 35 – 36.

[77]) الجوهري، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، جـ 2 ص 757-758.

[78]) ابن منظور، لسان العرب، جـ 4 ص 4 – 6.

[79]) ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ص 35.

[80]) المرجع السابق، ص 37.

[81]) صلاح قنصوة، الموضوعية في العلوم الإنسانية، ص 37، الطالبى وآخرون، ابن خلدون والفكر العربي المعاصر، ص 28 – 29. يقول عبدالواحد وافى إن ابن خلدون قد استعمل كلمة "العوارض الذاتية" في مواضع كثيرة من المقدمة ويقصد منها كلمة "القوانين" ويتضح قصده هذا مما كتبه في الفصل الخاص بعلم الهندسة إذ يقول:

1052م ولما يتجاوز المعتمد الثالثة عشرةَ من عمره ، ثم بعد أن استولى المعتضد على شلْب (Silves) انتقل المعتمد إليها وأصبحت شِلب مقَّر عامل إقليم الغرب.[8] ولما قتل المعتضد ابنه الأكبر وولّ عهده إسماعيل بتهمة التآمر على حياته (450- 1059م) .استدعى المعتمد من شِلب إلى أشبيلية وولّاه عهده .

في شلب كان المعتمد قد تعرف على شاعرِ محلّي قُدِّرله فيما بعد أن يلعب دوراً خطيراً في أحداث الأندلس ، ألا وهو ابوبكر محمد بن عمار الذي أصبح صديقاً حميماً للمعتمد . إلا أن المعتضد لم يكن راضياً عن علاقة ابنه بابن عمار، ولذلك فانه أبعدَ الشاعر فيما بعد عن أشبيلية .[9]

حدث ذات يوم أن ركب المعتمد في نهر الوادي الكبير ومعه ابن عمار ، وقد زردت الريحُ النهر فقال المعتمد لابن عمار ، أجزْ ، صنعَ الريحُ من الماء زرد . ولما أطال ابن عمار الفكر قالت امرأة من الغسَّالات: أي درع لقتال لو جمد. فأعجب المعتمد بحضور بديهتها وجمالها وسألها عمّن تكون ، فأجابت بأنها اعتماد جاريةُ رميك بن حجاج ، فابتاعها المعتمد من مولاها وتزوجها.[10] وقد ارتبط المعتمد طيلة حياته ارتباطاً وثيقاً باعتماد، و لم يَرُقْ ذلك لأبيه بادئ الأمر ، كما أسخط الفقهاء فيما بعد إذ اتهموها بصرف المعتمد عن واجباته الملكية والدينية . وبلغ من تعلقه بها أن اتّخذ لقبه من حروف اسمها، وله فيها، وقد ضمن أوائل الأبيات حروف اسمها.[11]

أغائبةَ الشخص عن ناظري   وحاضرةً في صميم الفؤاد
عليك السلام بقدر الشجون   ودمع الشؤون وقدر السهاد
تملكت مني صعب المرام   وصادفت مني سهل القياد

---

[8] ابن خلدون ، العبر ؛ بنى عباد ، 210/2
[9] المراكشي ، المصدر السابق ، ص117 . ابن الابار المصدر السابق 131/2
[10] المقريء ،نفح الطيب ، 5/ 342
[11] ابن الابار ،المصدر السابق ، 61/2

مرادي أعياك في كل حين   فيا ليت أني أعطى مرادي
أقيمي على العهد في بيننا   ولا تستحيلي لطول البعاد
دسستُ اسمك الحلو في طيه   وألّفتُ فيك حروف " اعتماد "

ولا يُذكر شيء عن حياة المعتمد في أشبيلية بعد عام 450/ 1058م إلى حين فشل الحملة التي وجهها المعتضد بقيادة المعتمد الشاب لانتزاع مالقة من يد باديس بن حبوس ، صاحب غرناطة (458- 1066م) وهى الحملة التي باءت بالفشل ، ونجا المعتمد بصعوبة معتصماً في حصن رُنْدَة المجاور ، حيث أخذ يستعطف أباه شعراً مبرراً فشل الحملة وقد نفى المعتمد ما اتهم به من الانشغال بالشراب والنساء فقال من قصيدته الرائية.[12]

لم أوتَ من زمني شيئاً ألـدُّ به   فلست أعرفُ ما كاس ولا وتر
ولا تلكني دَلٌّ ولا خفر   ولا تمرَّس بي غنجٌ ولا حور

ثم يمضى إلى التعريض بفئة من المغاربة خذلوه وكانوا سبباً في الهزيمة :

وما الذنب إلا على قوم ذوى دغلٍ   وفى لهم عفوك المعتهود إذ غدروا
قومٌ نصيحتهم غِشٌ وحبهم   بغض ونفعهم إن صُرِّفوا ضرر

وكتب كذلك إلى والده يسترضيه.[13]

مولاي أشكو إليك داء   أصبح قلبي به جريحاً
إن لمْ يُرحه رضاك عنى   فلست أدرى له مريحا
سخطك قد زادني سقاماً   فابعث إلى الرضا مسيحا

---

[12] ابن خاقان ، قلائد العقيان ، ص12 . ابن الابار المصدر السابق 57/2

[13] ابن خاقان، المصدر السابق ص19 . ابن دحية ، المطرب ،ص16

ويبدو إن المعتمد ، بتشجيع من والده أخذ ينظم الشعر في حداثة سنه ، ولا بد أن موهبته الشعرية قد نشطت لكثرة الشعراء في بلاط أبيه من أمثال أبي الوليد أحمد بن زيدون .

كان المعتمد مولعاً منذ أيام صباه بالصيد وركوب الخيل. وكتب إلى أبيه شعراً يلتمس منه جواداً[14]

لعبدك همّةٌ هامت   بركض الضُمَّر الجُرْد

وكتب إلى والده يستأذنه بالخروج إلى الصيد.[15]

عبيدك مولع بالصيد قِدْماً   وحبٌّ الصيد من شيم الكرام

وجرياً على عادة شعراء الأندلس آنذاك ، نظم المعتمد أبياتاً يصف فيها مِجنًّاً وتُرْساً وشمعةً وعوداً ، وبناءً على تعليمات أبيه ، دفع المعتمد مجلسه عن مجلس مؤدبه ابن زيدون، ولكنه أعرب عن تواضعه واحترامه للشاعر والوزير بإنشاده :[16]

أيها المنحط عني مجلساً   وله في النفس أعلى مجلس
بفوادي لك حب يقتضي   أن ترى ترفع فوق الأرؤس

كما يقول ابن الأبار، فإن المعتمد كان مولعاً بالشراب والدعة ،خصوصاً في أيام شبابه وفى السنوات الأولى من توليه الملك.[17] ومما قاله في ذلك.[18]

مررتُ بكرمةٍ جذبتْ ردائي   فقلتُ لها: عزمتِ على أذائى
فقالت : لِمْ مررتَ ولم تسلّم   وقد رُويتْ عظامك من دمائي

استدعى المعتمدُ يوماً ابن عمار لمشاركته في مجلس أنسه فقال:[19]

---

[14] المصدر السابق ص 44

[15] ابن خاقان ، المصدر السابق ، ص7

[16] ابن الابار ، المصدر السابق 54/2

[17] احمد بدوى / حامد عبد المجيد ، المصدرص2

[18] ابن دحية ، المصدر السابق ص16

[19] ابن خاقان ، المصدر السابق ص 10

قد زارنا النرجسُ الذكي   وحان من يومنا العشى
ونحن في مجلس أنيق   وقد ظمئنا وثم ريُّ
ولى خليل غدا سمّى   يا ليته ساعد السمىَ

وبلغه أن جماعةً من الأصحاب قد أمضوا نزهةً ممتعة في مدينة الزهراء ، فبعث يدعوهم إلى حفلٍ في قرطبة :[20]

حسد القصرُ فيكم الزهراء   ولعمري وعمركم ما أ ساء
قد طلعتم بها شموساً صباحاً   فاطلعوا عندنا بدوراً مساء

المعتمد ملكاً:-

كان المعتمد في نحو الثلاثين من عمره حينما خلف أباه على عرش أشبيلية (461) .وعلى العكس من والده الذي اشتهر بالقسوة والبطش، فإن المعتمد تميز بالحلم والصفح. حدث بعد توليه الملك أن نظم بعض حساد ابن زيدون أبياتاً ووجهوها إلى المعتمد يتهمون فيها الشاعر بارتياحه لوفاة المعتضد ، ويحثون المعتمد على الانتقام منه. ولكن المعتمد كان يدرك ما في نفوسهم، فرد عليهم بأبياتٍ تنمُّ عما في سجيته من وفاءٍ وكرم، منها[21] :

كذبتْ مُناكم صرِّحوا أو جمجموا   فالذين أمتنُ والسجيةُ أكرم
أنى رجوتُمْ غَدْرَ من جرَّبتم   منه الوفاءَ وظلمَ مَنْ لا يظلم

وفى نفس المعنى قال المعتمد مطمئناً وزيره ابن عمار قبيل استيلاء الأخير على مُرْسِية (471-1078م) ، وكان الشاعر قد أحسَّ بوحشيةٍ نحوه من جانب المعتمد[22] :

---

[20] ابن بسام ، الذخيرة – مجموعة بنى عباد – 302/1 . ابن خاقان المصدر السابق ص 15

[21] ابن الابار ، المصدرالسابق 136/2

[22] ابن خاقان ، المصدر السابق ص 11

متى تلقنيَ تَلْقَ الذي قد بلوته   صفوحاً عن الجاني روؤماً على الصحب
فما أشعرَ الرحمنُ قلبي قسوة   ولاصار نستيان الأذمةِ من شعبي

استولى المعتمدُ على قرطبة من بنى جهور (462- 1070م) ونظم قصيدة من خمْسة أبيات يعبر فيها عن اعتزازه بعاصمة الخلافة القديمة ، ويحذر بقية ملوك الطوائف مما سيحل بهم على يديه .[23]

من للملوك بشأو الأصيد البطل
هيهات جاءتكم مهديةُ الدول
خطبتُ قرطبةَ الحسناء إذ منعتْ
من جاء يخطبها بالبيض والاسل
وكم غدت عاطلاً حتى عرضتُ لها
فأصبحت في سرّى الحلي والحُلل
عرسُ الملوك لنا في قصرها عُرسٌ
كلٌّ الملوك به في مأتم الوجل
فراقبوا عن قريبٍ لا أبالكم
هجوم ليثٍ بدرعِ البأس مشتملِ

والمعتمد في ذلك يحذو حذو أبيه المعتضد ، الذي كان قد نظم أبياتاً مبدياً فيها سروره لانتزاعه رُندة الحصينة من يد صاحبها ابن أبي قَّرة (457- 1065م) ومطالباً رعاياه بحفظها ، ومطلعها:[24]

لقد حُصِّلتِ يا رُندة
فصرتِ لملكنا عُدَّة

---

[23] ابن بسام ، الذخيرة – مجموعة بنى عباد 247/1

[24] ابن خاقان ، المصدر السابق ص5

ما أن ارتقى المعتمدُ العرش حتى استدعى صديقه الشاعر أبابكر بن عمار من منفاه في سرقسطة وولاّه على شِلب ،وكتب إليه يحنُّ إلى أيام صباه فيها وقت إن كان والياً لأبيه عليها.[25]

ألا حيِّ أوطاني بشِلبِ أبا بكر
سلهنَّ هل عهد الوصال كما أدرى
وسلِّم على قصرٍ الشراجيب من فتى
له أبدا شوقٌ إلى ذلك القصر
منازل آسادٍ وبيضٍ نواعم
فناهيك من غيلٍ وناهيك من خدر

وفى قصيدة من ثمانية أبيات نظمها في مستهل توليه الملك، يصف المعتمد ما كان يحفُّ به من أبهة وعز، منها[26] :

ولقد شربتُ الراحَ يسطع نورها
والليل قد مدَّ الظلامَ رداء
حتى تبدى البدر في جوزائه
ملكا تناهى بهجة ورواء
وحكيته في الأرض بين مواكب
وكواعبٍ جمت سناً وسناء

يعتبر المعتمد في طليعة شعراء الغزل في الأدب العربي، والكثير مما نظمه من الشعر قبل توليه الملك وفى السنوات الأولى من ملكه كان شعراً غزلياً. قال متشوقاً إلى اعتماد.[27]

كتبت وعندي من فراقك ما عندي

---

[25] نفسه

[26] بدوى / حامد ، الديوان ص 6

[27] المصدر السابق ص 10

وشوقي كمن قد بان عن جنة الخلد
وما خطت الأقلام إلا وأدمعي
تخطُّ سطور الشوق في صفحة الخد
ولولا طِلابُ المجد زرتُك طيه
عميداً كما زار الندى ورق الورد

وقال في أبيات رقيقه يتغزل في إحدى جواريه.[28]

باليت مدةَ بعدك
رشيقةُ مثل قدِّك
كمدةِ الورد ، ورد
الربيع ، لاوردِ خدك
فعمرُ ذا عمرُ صبري
وعمرُ ذا عمرُ صدِّك
رضيت منك وان لم
تنجز بلذة وعدك

كان المعتمد مغرماً بإنشاد أشطار من الشعر ومطالبة جلسائه بإجازتها. وبهذه الطريقة اختبر المعتمدُ إجادة عبد الجبار بن حمديس الشعر قبل أن يلتحق بشعراء بلاطه ، وكان ابن حمديس قد وصل إلى أشبيلية (470– 1078م) نازحاً عن مسقط رأسه سرقوسة في صقلية قبيل سقوطها في أيدي النورمان.[29]

كان المتنبي شاعر المعتمد المفضل ، وكثيراً ما كان يردد أشعاره ويبحثها في مجالسه ، أنشد المعتمد يوماً بيتاً للمتنبي ، فقال أحد شعراء البلاط عبد الجليل بن وهبون.[30]

---

[28] المقرى ، نفح الطيب ، 150/5

[29] ابن دحية ، المطرب ، ص118

[30] المقرى ، المصدر السابق 110/5

لئن جاد شعرُ ابن الحسين فإنما
تجيد العطايا واللُّها تفتح
اللَّها تنبأ عجباً بالقريض ولو درى
بأنك ترويه إذا لتألها

فكافأه المعتمد بمائة دينار!

وفى أثناء حملة الزلاقة ، امتدح أبو محمد الحجازي المعتمد في قصيدة ورد فيها البيت التالي[31]:

ولا سقاهم على ما كان من عطش
إلا ببعض ندى كفٍّ ابن عباد

ويقول الحجازي إن المعتمد أخذ يتمعن في القصيدة " وأنا مترقب لنقده ، لكونه في هذا الشأن من أئمته ، وكثيراً ما كان الشعراء يتحامونه لذلك إلا من عرف من نفسه التبريز " وتلقى الحجازي هبةً سخيةً مكنته من أن يبدأ مشروعاً ناجحاً في المرِّية .

لقد كان المعتمد مضرباً للأمثال في سخائه وكرمه.عمار. تلقى بعد توليه الملك هديةً وقصيدة مديح من ابن عمار فبعث إليه المعتمد بهدية وبمبلغ كبير من المال وشكره في البيت التالي:[32]

فلو أن بيت المال يحوى قفلُه
أضعافها لكثرُته من بابه

وبعد أن ساءت العلاقة بين ابن عمار وراعيه المعتمد بشأن أحداث مرسية – حيث تطلع ابن عمار إلى الانتزاء فيها – ووقع آخر الأمر في يد المعتمد ،نظم ابن عمار قصيدة يلتمس فيها صفحه ومنها:[33]

---

[31] ابن الابار ، المصدر السابق 162/2

[32] المراكشي ، المصدر السابق ص126 . ابن خاقان المصدر السابق 101

[33] ابن الابار ، المصدر السابق 187/2

وبين ضلوعي من هواه تميمة
ستنفع لو أن الحِمامَ يجلّح

فسخر عراقي كان حاضراً في المجلس من القصيدة إلا أن المعتمد قال: إنه رغماً عن نكران ابن عمار للجميل ، فإنه لم تعوزه الفطنة ، إذ أنه في البيت كان يشير إلى بيت للهذلي :

وإذا المنية أنشبت أظافرها
ألفيْتَ كلَّ تميمةٍ لا تنفع

بعد عام 475-1082م – حينما قتل المعتمد ابن شاليب اليهودي مبعوث ادفونش لتسلم الضريبة – وبعد عام 477- 1084م -- حينما قتل المعتمد ابن عمار لغدره وهجائه المقذع للمعتمد وأسرته – لم يبق سرورحقيقى في حياة المعتمد .

وإزاء ازدياد خطر أدفونش السادس ملك ليون وقشتالة وتهديده للمعتمد وبقية ملوك الطوائف، بادر المعتمد إلى الاستعانة بيوسف بن تاشفين سلطان المرابطين في المغرب ، وقوبلت هذه المبادرةُ من جانب المعتمد بالارتياح من قبل الأندلسيين عامة . فهاهو الأديب والجغرافي الاندلسى المعاصر أبوعبيد البكري يمتدح المعتمد لاستدعائه المرابطين . ويقول:[34]

فجزتَ أجاجَ البحر تبغى زلاله
وذقت جنى الأهوال تبغى جنى الشهد
محمد يا ابن الأكرمين أرومة
ليهنك تشييد المكارم والمجد

---

[34] ابن بسام ، الذخيرة ، 2/1 .

فلو خلد الإنسان بالمجد والتقى
وآلائه الحسنى لهنئت بالخلد

هذا في وقتٍ كان فيه الفقهاء يحملون على ملوك الطوائف لتخاذلهم وانقساماتهم بدلاً من الوقوف صفاً واحداً أمام هجمات النصارى ، مما أدى إلى سقوط طليطلة (478-1085م) فأبو القاسم الالبيرى المعروف بالسميسر يقول:[35]

ناد الملوك وقلْ لهم
ماذا الذي أحدثتم
أسلمتمُ الإسلام في
أسر العِدا وقعدتم
وجبَ القيامُ عليكم
إذ بالنصارى قمتم
لا تنكروا شقَّ العصا
فعصى النبي شققتم

وقبيل وقعة الزلاقة (479-1086م) بعث المعتمد بالأبيات التالية إلى يوسف بن تاشفين.[36]

غزو عليك مبارك
في طيه الفتحُ القريب
لله سيفك انه
سخط على دين الصليب

---

[35] ابن الابار ، المصدر السابق ص46 .

[36] المصدر السابق ص 47 ، ابن ابى زرع ، روض القرطاس ،ص98

لابد من يوم يكون
له أخُ يوم القليب

ويبدو أن المعتمد ، دون بقية ملوك الطوائف ، أبلى بلاءً حسناً في وقعة الزلاقة في حين فرَّ من القوات الأندلسية من ساحة القتال . وقد جرح المعتمد وأبتْ عليه شاعريته حتى في ميدان الوغى إلا أن يقول شعراً ، ذاكراً ابنه الطفل الذي خلفه في أشبيلية.[37]

أبا هاشم هشمتني الشفار
فلله صبري لذاك الأوار
ذكرتُ شخيْصك ما بينها
فلم يثنني حبُّه للفرار

وللمعتمد قصائد ساحرةُ عارض في إحداها قصيدة لابن عمار كان حمل فيها ابن عمار على ابن عبد العزيز صاحب بلنسية ،وفي قصيدة أخرى عاتب عابثاً ابنه الراضي الذي كان قد تمارض في لورقة حينما أمره والده بأن يقود قوةً ضد القشتاليين الذين ما انفكوا يغيرون من حصن لبيط (Aledo) على منطقة مرسية ويُروعون سكانها بعد وقعة الزلاقة . وكان الراضي محباً للكتب والمطالعة وشاعراً ناشياً . ومن أبيات قصيدة المعتمد الهازلة الساخرة بابنه:[38]

الملك في طي الدفاتر
فتخيل عن قود العساكر

---

[37] ابن خاقان ، المصدر السابق ص 34

[38] المصدر السابق ص 35 . ابن الابار المصدر السابق 75/2

طفْ بالسرير مسلماً
وارجع لتوديع المنابر
أولستَ تذكرُ وقتَ لو
رقةٍ وقلبك ثَمَّ طائر
لا يستقرُّ مكانه
وأبوك كالضرغام خادر
هلا افتديت بفعله
وأطعته إذ ذاك آمر

وردّ يزيد الملقب بالراضي، على أبيه معتذراً ومتوسلاً عفوه في قصيدة من ستة وثلاثين بيتاً في نفس الوزن والقافية ومنها:[39]

مولاي قد أصبحتُ كافر
بجميع ما تحوى الدفاتر
وعلمت أن الملك ما
بين الأسنة والبواتر
لا تنس يا مولاي قو
لة ضارعٍ لا قول فاخر
ضبط الجزيرة عندنا
نزلتْ بعقوبتها العساكر

وفى البيت الأخير يشير الراضي إلى أول نزول المرابطين في الجزيرة الخضراء 479-1086 م. حينما كان هو والياً عليها، فصمد فيها إلى أن جاءه كتاب أبيه يأمره فيه بإخلاء الجزيرة الخضراء للمرابطين.

---

[39] ابن خا قان ، المصدر السابق ص 14

وأثناء حصار المرابطين والأندلسيين لحصن لييط (Aledo) ، الذي اعتصم فيه جنود النصارى 481-1088م ، بذل المعتصم بن صمادح صاحب المَّرية — وكان شديد الغيرة والحسد للمعتمد - قصارى جهده للإيقاع بين أمير المسلمين يوسف بن تاشفين والمعتمد. ولما علم المعتمد بوشاية ابن صمادح، حذره قائلاً:[40]

يا من تعرض لي يريد مساءتى
لاتعرض فقد نصحتُ لمندم
مَنْ غرَّه مني خلائقُ سهلةُ
فالسمُّ تحت ليان مسِّ الأرقم

المعتمد أسيراً:-

لما قرر يوسف بن تاشفين خلع ملوك الطوائف في الاندلس بعد استشارة الفقهاء ونيل موافقتهم ، بدأ بصاحب غرناطة عبد الله بن بلقين ، ثم المعتمد الذي بدأ بالمقاومة في كلٍ من قرطبة وأشبيلية . ونظم المعتمد القصيدة التالية التي تعبر خيرتعبيرعما كان يختلج في نفسه من رغبة في الدفاع عن ملكه حتى النهاية.[41]

لما تماسكت الدموع
وتنبه القلب الصديع
قالوا الخضوع سياسة
فليبْدُ منك لهم خضوع

---

[40] المصدر السابق ص22 . الراكشي ، المصدر السابق ص141 . ابن الابار ، المصدر السابق 65/2

[41] ابن خاقان ، المصدر السابق ص22

وألذ من طعم الخضوع
على فمي السُّم النقيع
إن يسلب القوم العدا
ملكي وتسلمني الجموع
لم أُسلب شرفَ الطباع
أيسلب الشرف الرفيع
قد رمت يوم نزالهم
إلا تحصنى الدروع
وبرزتُ ليس سوى القميص
على الحشا شيء دفوع
وبذلتُ نفسي كي تسيل
إذا يسيل بها النجيع
أجلي تأخر لم يكن
بهواي ذلي والخضوع
ما سرتُ قطٌّ إلى القتال
وكان من أملي الرجوع
شِيمُ الالى أنا منهمُ
والأصل تتبعه الفروع

يقول ابن خاقان ،بأسلوبه السجعي المنمق،إن المعتمد تصدى للمهاجمين "في رحبة القصر وقد ضاق بهم فضاؤها ،فحمل فيهم حملةً صيرتهم فرقاً وملأتهم رعباً ،وما زال يوالي عليهم الكرَّ حتى أوردهم النهر ، ثم انصرف وقد أيقن بانتهاب ماله ، وذهاب ملكه وارتحاله ،وعاد إلى قصره واستمسك به يومه وليلته ، وقد عزم على أفظع أمر (

أي الانتحار) وقال بيدي لا بيد عمرو ،ثم صرفه ثُقاه عما كان نواه ".[42]

وهكذا وبعد سبعين عاماً من الاستقلال ، سقطت أشبيلية في أيدي المرابطين — 20 رجب 484/ 7سبتمبر 1091م — وتقرر نقل المعتمد وأسرته إلى المغرب ، وقد تجمع أهل أشبيلية على ضفتي الوادي الكبير يودعون مليكهم ، وفى ذلك يقول ابن اللبانة راثياً بني عباد .[43]

تبكى السماء بمزنٍ رائح غاد
على البهاليل من أبناء عباد
نَسِيتُ إلا غداةَ النهر كونهم
في المنشآت كأمواتٍ بالحاد
والناس قد ملئوا العبرين واعتبروا
ومن لؤلؤ طافياتٍ فوق أزياد
سارت سفائنهم والنوح يصحبها
كأنها إبلٌ يحدو بها الحادي
كم سال في الماء من دمع وكم حملت
تلك القطائع من قِطعات أكباد

لقد أحبَّ الاشبيليون المعتمد ، ولعلَّ ذلك يفسر المقاومة التي أبدوها في وجه المرابطين . لقد أحبوا فيه شاعريته وكرمه وحلمه وشجاعته وفروسيته ، ورحبوا باستدعائه المرابطين لنصرة أهل الأندّلس . وفى عهده شهدت اشبيلية رخاءً كبيراً ، وأصبحت عاصمةً لأكبر وأقوى مملكه من ممالك الطوائف . لذلك فان أهل اشبيلية نظروا إلى سقوط أسرة بني عباد على أنه نهاية حقبة مجيدة في تاريخ مدينتهم .

---

[42] المصدر السابق ص 23 . المراكشي ، المصدر السابق 148

[43] الاصفهاني ، المصدر السابق 383/1 . الديوان ص89

بقى المعتمد وأسرته في طنجه أياماً ، ثم نُقلوا منها إلى مكناس حيث امضوا بضعة شهور . وفى الطريق إلى مكناس أبصر المعتمد موكباً من الناس يصلون صلاة الاستسقاء. فأنشد بيتين يفيضان حسرة على ما ألم به.[44]

خرجوا ليستسقوا فقلت لهم
دمعي ينوب لكم عن الأنواء
قالوا حقيق في دموعك مقنع
لكنها ممزوجة بدماء

تقرر نقل المعتمد من مكناس إلى اغمات ، وفى الطريق إلى اغمات يبدو أن المعتمد عتب على ابنه الرشيد عتباً أفرط فيه ، فكتب إليه مستعطفاً[45] :

يا حليف الندى ورب السماح
وحبيب النفوس والأرواح
من تمام النعمى على التماحى
لمحة من جبينك الوضاح

فأجابه المعتمد :[46]

كنت حلف الندى ورب السماح
وحبيب النفوس والأرواح
إذ يميني للبذل يوم العطايا
ولقبض الأرواح يومَ الكفاح

---

[44] ابن الابار المصدر السابق 69/2

[45] المصدر السابق 70 /2

[46] دائرة المعارف الاسلامية 250 /9 مادة أغمات

وأنا اليوم رهن اسرٍ وفقرٍ
مستباح الحمى مهيض الجناح
لا أحب الصريخ إن حضر الناسُ
ولا المعتقين يوم السماح

لقد تقرر أن تكون أغمات مقراً لإقامة المعتمد وأسرته في المنفى ، ولعل اختيارها يعود إلى كونها غير بعيدة عن مراكش العاصمة ، والى أنه يتعذر على المعتمد النجاة منها أو أحداث القلاقل للمرابطين في مملكته السابقة . وتقع أغمات على بعد نحو خمسة وعشرين ميلاً إلى الجنوب من مدينة مراكش . وكانت أكبر مدن جنوب المغرب إلى أن بن المرابطون مراكش واتخذوها عاصمة لهم ،(462-1070م) ويصف الجغرافيون العرب مدينة أغمات في القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي / بأنها مدينة مزدهرة تحيط بها البساتين ، كما أنها كانت مركزاً ثقافياً نشطاً اجتذب الكثيرين من الفقهاء والأدباء من قرطبة والقيروان.[47]

نُقل المعتمد وأسرته إلى قلعة أغمات ، و لم يُقيَّد.بالأغلال إلا بعد عامين من وصوله ، بعد أن تزعم ابنه عبد الجبار ثورة ضد المرابطين في جنوب الأندلس ، وفى ذلك يقول ابن خاقان:" ولما زأر الشبل خيف ثورةالاسد ".[48] وقد زار المعتمد في منفاه شعراء بلاطه السابقون كابن اللبانة ، وابن حمديس، والحجازي وابن عبد الصمد . وكان ألمه في منفاه في أغمات نفسياً ناتجاً عن فقدانه السلطان والجاه. مع ملاحظة أن القصائد التي نظمها أثناء أسره تميزت بالصدق والأسى. ففقدانه للملك والحرية ،ومصرع عدد من أبنائه، والمشاق التي تعرضت لها أسرته – كل ذلك حزَّ في نفسه وترك أثراً عميقاً أوحى إليه نظم أجود قصائده، وبذلك أثرى التراث الأدبي العربي بشعر رفيع المستوى بكى فيه

---

[47] ابن خاقان ، المصدر السابق ص26

[48] المقرىء ، المصدر السابق 343/5

حظه معبراً عن الاستسلام للقدر وماخبأه له ، لقد وجد عزاءه في الشعر وبه عبر عن أعمق أحاسيسه وأصدق مشاعره .

وفى المنفى فى أغمات ، قالت له اعتماد لقد هُنَّا هنا، فقال : [49]

قالت لقد هُنَّا هنا
مولاي أين جاهُنا
قلت لها إلهنا
صيّرنا إلى هنا

وقال وقد تذكر أيام نعيمه في اشبيلية[50]

قبح الدهر فماذا صنعا
كلما أعطى نفيساً نزعا
قد هوى ظلماً بمن عادته
أن ينادى كلٌّ من يهوى:"لعا"
من إذا قيل الخنا صُمَّ وان
نطق العافون همساً سمعا

وقال في قصيدة بعث بها إلى ابن حمديس[51] :

غريبٌ بأرض المغربين أسير
سيبكي عليه منبرٌ وسرير
فيا ليت شعري هل ابيتن ليلةً
أمامي وخلفي روضة وغدير

---

[49] المراكشي ، المصدر السابق ص145

[50] ابن خاقان ، المصدر السابق ص26

[51] نفسه

وتذكر قصوره في اشبيلية فقال :[52]

بكى المبارك في إثر ابن عباد
بكى على إثر غزلان وآساد
بكى الوحيد بكى الزاهي وقبَّتُه
والنهر والتاج كل ذله بادي

فقد المعتمد ثلاثةً من أبنائه في قتال المرابطين ، هم المأمون (الفتح) في قرطبة . والراضي (يزيد) في رُنده . ومالك في اشبيلية . وكان قبل ذلك قد فقد ابنه الأكبر عبادا — اباعمرو — على يد الثائر ابن عكاشة في قرطبة (466- 1074م) قال يرثيهم :[53]

يقولون صبراً لا سبيل إلى الصبر
سأبكي وأبكي ما تطاول من عمري
هوى الكوكبان الفتحُ ثم شقيقه
يزيد فهل عند الكواكب من خُبْر
أفتحٌ لقد فتحت لى باب رحمة
كما بيزيد الله قد زاد من أجرى
تولَّيتما والسن بعد صغيرةٌ
ولم تلبث الأيام أن صعرت خدي
فلو عدتُما لاخترتما العود في الثرى
أذا أنتما أبصرتماني في الأسر

---

[52] ابن الابار ، المصدر السابق 61/2 . ابن خاقان ، المصدر االسابق ص12

[53] ابن خاقان ، المصدر السابق ص25

معي ألأخوات الهالكات عليكما
وأمكما الثكلى المضرمة الصدر
أبا خالد أورثتني الحزن خالداً
أبا النصر مذ ودعت ودعني نصري
وقبلكما قد أودع القلب حسرة
تجدَّدُ طول الدهر ثكلُ أبي عمرو

زارت المعتمد يوم العيد بناته وهن يرتدين أسمالاً ، وكن قد اضطررن لغزل الثياب لاعانتهن على العيش ، فقال المعتمد متحسراً:[54]

فيما مضى كنت بالأعياد مسروراً
فساءك العيد في اغمات مأسورا
ترى بناتك في الاطمار جائعة
يغزلن للناس لايملكن قِطميرا
يطأن في الأطيان والأقدام حافية
كأنها لم تطأ مِسكاً وكافورا

وحدث انه لما سقطت اشبيلية في ايدى المرابطين ، كانت ابنة المعتمد بثينة في جملة من سُبى، ثم حازها أحد تجار اشبيلية ، وأراد ابنه الزواج منها.،ولكنها أبت الزواج قبل استئذان والديها ، ولما علم المعتمد بذلك ، بعث إليها بموافقته ونصيحته [55]:

بنيتي كوني بِه برة
فقد قضى الدهر بإسعافه

---

[54] ابن خاقان المصدر السابق ص 25

[55] المقرىء ، المصدر السابق 20/6

وكان منظر الطيور تحلق حرة طليقة في السماء يثير الشجون في نفس المعتمد ،الذي كان يغبطها حريتها ويتمنى أن يكون مثلها حراً طليقاً:[56]

بكيت إلى سرب القطا إذ مررن بي
سوارح لا سجن يعوق ولا كَبْلُ
ولم تك والله المعيذُ حادةً
ولكن حنيناً أن شكلي لها شكل
ألاعّصمَ الله القطا في فراخها
فان فراخى خانها الماءُ والظل

أبصر يوماً قمرية تنوح على إلفها فذكرته أبناءه[57] :

بكت واحداً لم يشجها غير فقده
وأبكى لآلاف عديدهم كّثر
ونجمان زين للزمان احتواهما
بقرطبة النكداء أو رُندة القبر

في وسط كل الآلام كان المعتمد يجد سلواه في إيمانه:[58]

مُخفّفُ عن فؤادي أن ثكلكما
مثقلٌ لي يوم الحشر ميزانا

ولما سمع المعتمد بثورة ابنه عبد الجبار على المرابطين، اضطرب بادئ الأمر، إلا انه لم يلبث"أن أطرق رأسه وقد تهللت أسرته وتشوف إلى السماء، فعلمتْ انه قد رجَا عودة سلطانه "[59]. لقد بعثت ثورة ابنه الأمل في نفس المعتمد وذكرته بسيفه ورمحه[60] .

---

[56] ابن خاقان ، المصدر السابق ص28

[57] بدوى / حامد ، الديوان ص70

[58] ابن خاقان ، المصدر السابق ص 27

كَذا يهلك السيف في جفنه
إلى هز كفى طويل الحنين
كذا يعطش الرمح لم اعتقله
ولم تروه من نجيع يميني

وعلى اثر ثورة عبد الجبار، أمر يوسف بن تاشفين بتكبيل المعتمد تحوطاً ، للمعتمد أشعار يشكو فيها قيده منها[61].

قيدي أما تعلمني مسلما
أبيت أن تشفق أوترحما
دمى شراب لك واللحم قد
أكلته لاتهشم الاعظُما
يبصرني فيك أبو هاشم
فينثني القلب وقد هُشما
وارحم اخيات له مثله
جرعتهن السم والعلقما

وحدث أن قدم إلى مراكش الوزير والطبيب ابوالعلا بن زهر لمعالجة يوسف بن تاشفين، فدعاه المعتمد إلى اغمات لمعالجة زوجته اعتماد، ومما يذكر أن المعتمد كان قد أعاد إلى ابن زهر ممتلكات أسرته المصادرة على يد المعتضد . وقد لبى ابن زهر دعوة المعتمد وبعث إليه بأطيب تمنياته، فشكره المعتمد قائلاً:[62]

---

[59] نفسه

[60] المقرىء ، المصدر السابق 351/5

[61] ابن بسام ، الذخيرة 317/1

[62] المراكشي ، المصدر السابق ص 105

دعا لي بالبقاء وكيف يهوى
أسير أن يطول به الشقاء
أليس الموت أروح من حياة
يطول على الشقي بها الشقاء
فمن يك من هواه لقاء حب
فان هواي من حتفي اللقاء

ويبدو أن المعتمد لم ينقطع تماماً عن مراسلة أصدقائه في الأندلس، وكانت زيارات شعراء بلاطه السابقين ترفع من روحه المعنوية. وفى قصيدة بعث بها إلى ابن اللبانة اثر زيارة من هذا القبيل يشير المعتمد إلى غدر المرابطين به. [63]

وأبقى أسامُ الذلَّ في أرض غربةٍ
وما كنت لولا الغدر ذاك أُسام

وطلب المعتمد مرة خباءً من ابنة يوسف بن تاشفين ولكنها اعتذرت، واعتبر المعتمد اعتذارها إهانة متعمدة ، وقال في قصيدة يعتب فيها على المرابطين سوء معاملتهم له وعدم الوفاء بعهودهم له: [64]

هم أوقدوا بين جنبيك نارا
أطالوا بها في حشاك استعارا
أما يخجل المجد أن يرحلوك
ولم يصحبوك خباءً مُعارا

---

[63] ابن بسام ، المصدر السابق 1/ 313

[64] بدوى / حامد ، الديوان ص97 . المقرىء ، المصدر السابق 5/ 348 . يوم العروبة هو يوم الجمعة الذى دارت فية معركة الزلاقة .

فقد قنعوا المجد إن كان ذا
ك – وحاشاهم– منك خزيا وعارا
تراهم نسوا حين جزت القفار
حنيناً إليهم وخُضتَ البحارا
بعهدٍ لَزومٍ لسبل ألوفا
إذا حاد من حاد عنه وجارا

غير انه تمالك نفسه و لم يتماد في عتابه ، واختتم القصيدة بالإشادة بيوسف بن تاشفين وبلائه في وقعة الزلاقة مما أنقذ الأندلس من الوقوع في أيدي النصارى :

وقلبي نزوع إلى يوسف
فلولا الضلوع عليه لطارا
ويوم العروبة ذدت العدا
نصرت الهدى وأبيت الفرارا
ثبتّ هناك وان القلوب
بين الضلوع لتأبى القرارا
ولولاك يا يوسف المتّقى
رأينا الجزيرة للكفر دارا

وقبيل أن تحضره الوفاةُ، نظم المعتمد قصيدة رثاء لنفسه من عشرة أبيات وأوصى بأن تكتب على قبره، وفيها يُعدد شمائله التي كثيراً ما أشار إليها في أشعاره، نذكر منها الأبيات التالية: [65]

قبر الغريب سقاك الرائحُ الغادي
حقاً ظفرتَ بأشلاء ابن عبادي

---

[65] المقرىء ، المصدر السابق ص159

بالحلم بالعلم بالنعمى إذا اتصلت
بالخصب إن أجدبوا بالري للصادي
بالطاعن الضارب الرامي إذا اقتتلوا
بالموت أحمر بالضرغامة العادي
نعم هو الحق وافاني به قدر
من السماء ووافاني لميعاد

توفى المعتمد وهو في الخامسة والخمسين من العمر (488-1095م) بُعيد وفاة زوجته الأثيرة لديه، ودفن إلى جانبها وقد رثاه كثير من الشعراء وزاروا قبره في أغمات، كابن اللبّانة وابن عبد الصمد وابن الخطيب والمقري،[66] علاوة على أن الكثيرين قاموا بتدوين سيرته وجمع قصائده في دواوين لم تصلنا.[67]

إن شهرة المعتمد تقوم على موهبته الشعرية ورعايته للشعراء، مّما جعله محل إعجاب الأدباء في عصره والعصور التالية، وقد وصف أحدهم حياة المعتمد بأنها" شعر صافٍ يفيض بالحياة والحركة ".[68]

ويقول ابن بسام(ت 542-1174م) إن للمعتمد "شعراً إنشقّ الكمام عن الزهر، ولو صدر مثله عمن جعل الشعر صناعته واتّخذه بضاعةً لكان رائقاً معجباً ونادراً مستغرباً، فما ظنُك برجلٍ لا يجد إلا رائياً ولا يُجيد إلا عابثاً"[69] ، أما ابن الآبار(ت 658- 1260م) فيقول " إنه لم يك في ملوك الأندلس قبله أشعر منه ولا أوسع مادة" ويضيف بأن "محاسن المعتمد في إشعاره كثيرة، وخاصة مراثيه لأبنائه وتفجعه لزوال سلطانه ، إضافة إلى أنه وجد من الناس خاصتهم وعامتهم حباً ورحمة فهم يبكونه إلى

---

[66] ابن خاقان ، المصدر السابق ص31 . المقرىء ، المصدر السابق 5/ 355

[67] ابن بسام ، الذخيرة 136/2 . ابن الابار ، المصدر السابق 22 . المقرىء ، المصدر السابق 318/5

[68] دائرة المعارف الاسلامية 60/1 مادة Arabiyya

[69] ابن بسام ، الذخيرة 1/ 297.

السيوم[70] كما وُصف المعتمد بأنه كان " زعيم شعراء الحزن في بلاد الأندلس عامة " لكثرة ما نظم من القصائد فيه.[71]

إن الانطباع الذي يخرج به القارئ لشعر المعتمد هو صدق شاعريته وعمق أحاسيسه ، وقد شُبّه شعرُ المعتمد بأنه "ظلٌ له.فان رأيت غزالاً هادئاً وحباً صادقاً فذلك في الفترة الأولى، وإذا رأيت شعره فخراً وشمماً مملوءاً حماسةً أو رثاءً فذلك في الفترة الثانية، وإذا رأيـت بكـاءً على الماضي ومقارنة بين ماضٍ زاهر وحاضر بائس، فاعلمْ أن هذا ظلُ للفترة الثالثة ".[72]

ثبت المصادر والمراجع

1- ابن أبي زرع الفاسى ، *روض القرطاس* ، أبساله 1846 م
2- ابن الابار ، *الحلّة السيراء* ، القاهرة ، 1963م
3- ابن بسام، *الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة*، جزءان، ليدن 1846م
4- ابن خاقان ، *قلائد العقيان* ، القاهرة 1320هجريه
5- ابن خلدون، *العبر* – بنى عباد — ليدن 1962م
6- ابن دحيه ، *المطرب في أخبار المغرب* ، القاهرة 1954م
7- احمد بدوى / حامد عبد المجيد، *ديوان المعتمد*، القاهرة 1951م
8- احمد أمين، *ظهر الإسلام*، القاهرة 1962م
9- الاصفهانى ، جريدة *القصر* ، مجموعة بنى عباد ، ليدن 1846م

---

[70] ابن الابار ، المصدر السابق 55/2

[71] بدير متولى ، قضايا اندلسيه ، ص320

[72] احمد امين ، المصدر السابق 3/ 178

10- المراكشي ، *المعجب في تلخيص أخبار المغرب* ، القاهرة 1954م

11- المقرئ، نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، القاهرة 1949م

12- الملك المنصور، *أخبار الملوك*، مجموعة بني عباد، ليدن 1952م

13- المؤلف مجهول ، *الحلل الموشية* ، الرباط ، 1936م

14- بدير متولي حميد ، *قضايا أندلسية* ، القاهرة 1964م

15- *دائرة المعارف الإسلامية*، ليدن — 1960م

16- غرسيه غومس ، *الشعر الاندلسى* ، ترجمة حسين مؤنس ، القاهرة 1956م